أدب المغاربة والأندلسيين

في أصوله المصرية وفصوصه العربية

مجموعة محاضرات ألقاها الأستاذ العلامة محمد رضا الشبيبي ، على قسم الدراسات الأدبية واللغوية في معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية في القاهرة ، والمحاضر العلامة معروف في الأوساط الأدبية بغزارة المادة الأدبية عنده ، ووفرة الانتاج الأدبي العالي نظماً ونثراً ، كما هو معروف في الأوساط السياسية العربية بأعماله المثمرة وآرائه السديدة ، وتنبآته التي أظهر الواقع صحتها . وهو من الراسخين في علوم الأدب العربي وتاريخه ، وله اليد المباركة في إغناء الأدب العربي والذهن الوقاد فيه . فهو علم من أعلام الثقافة العربية وركن شديد من أركان الأدب العربي .

بسط الأستاذ العلامة في محاضراته عناية الأدباء المشارقة واهتمامهم في الأدب المغربي وفي تراجم الجم الغفير من الأدباء المغاربة ، ولا سيما الشعراء منهم ، وبيّن الفروق المهمة في أسلوب الترسل بين الأدبين . وهو بحث دقيق ملذ ، يدل على تعمق في ملكة الأدب ، وجمع فيه استطراداً فوائد تاريخية مهمة كعناية الفاطميين بالعلوم والآداب والمكتبات ولمّ الكتب الثمينة في قصورهم ، وتيسير تناولها لطالبي الاستفادة منها ، وحكم الفاطميين في مصر ثم انحلاله . ومن ذلك تطرقه الى كثير من مآخذ العماد لكتابه (الخريدة) ، وذكره مأساة المعتمد بن عباد ، وبيانه عن أعلام الفكر والفلسفة في دول الأندلس والمغرب وما كانت عليه حالتهم ومذاهبهم ، وعلاقة الامام الغزالي بيوسف بن تاشفين .

وقد ترجم لكثير من علماء المغرب وادبائه تراجم ضافية أثبت فيها نصوصاً أدبية من

نظم ونثر ، وألمع إلى بعض شواعر الأندلس كحَمْدُونَ ـ وهي خديجة بنت أحمد بن كلثوم العامري وولّادة بنت المستكفي وعائشة الوادي آشية . وخص بالترجمة لطبقة مختارة من شعراء المغرب وصقلية والأندلس فترجم لثلاثين منهم .

وقد أفرغ المحاضر العلامة في محاضراته نكتاً أدبية لطيفة ، وقارن بين أدب المشارقة وأدب المغاربة فتوصل إلى فروق بينهما واضحة . وقد تكونت من تلك المحاضرات مجموعة حصلت كتاباً مفيداً جداً لم تقع عيني على أحسن منه في موضوعه . وقد سار فيه الإيجاز مع وفاء تام بالمقصود ، فهو على صغر حجمه يصلح مرجعاً للباحثين ومنداً من الأسناد في الأدب . فقد جمع فأوعى ، وقال فصدق . وقد لاحظت فيه بعض ما يستحسن التنبيه اليه . وهو :

١ — وقعت فيه بعض أغلاط مطبعية كان الأولى أن يحترز عنها ببذل شيء من الجهد في التصحيح . ولكن من الحق ألا يحاسب المؤلف على الأغلاط المطبعية . ومن ظلم الناقد وسخافته إن يحمل المؤلف وزر ذلك .

٢ — جاء في الصفحة ٨٧ في ترجمة ابن بقيّ : وقال القاضي ابن خلكان في ضبط هذه الكلمة « بقي بفتح الباء الموحدة وكسر القاف وتشديد الياء » ولكن المقري في نفح الطيب قال وهو يذكر هذا الشاعر « بقي على وزن علي » خلافاً للضبط الذي ورد في كتاب وفيات الأعيان . ثم قارن المؤلف العلامة بين ابن خلكان والمَقَرّي من حيث الضبط وانتهى إلى أن ضبط هذه الكلمة يفتقر إلى مزيد من التحقيق .

والذي أراه أن الضبط عند الشيخين واحد غير إن ابن خلكان ضبط الكلمة ببيان علامة كل حرف منها من حركة وشدة ، كعادته في ضبط الكلمات ، والمقري ضبطها بذكر وزنها فقال : (على وزن علي) فكان علينا أن نقرأ الوزن هكذا (عَلِيّ) الاسم فلا نجد عندئذ فرقاً بين الضبطين . أما لو قرأناه هكذا (على) حرف الجر — وهو بعيد — فيحصل الفرق ، قلت : (بعيد) لأن الأسماء توزن بأسماء مثلها لا بوزن حرف ، ولأن

المقرى متأخر كثيراً عن ابن خلكان ولعله نقل الضبط عنه . وكون المقرى اندلسي الأصل لايستلزم أن يكون حجر عثرة لضبط كلمة تخص أندلسياً وقد سبق أن ضبطها مؤرخ معروف بدقة الضبط قبل مئات السنين . فالمتقدم والمتأخر ضبطها واحد . وإنما الفرق المتصور نشأ من التوهم في قراءة كلمة (على) .

٣ - في الصفحة التسعين ترجم الاستاذ العلامة الشاعر الأبيض ولكنه رفعه مكاناً عليا إذ عده من أبطال التاريخ الاندلسي وما ذلك إلا لأنه شتم ملكاً جباراً ظالماً بوجهه في مجلسه فأمر بقتله فقتل . وعندي أن مثل هذا الشاعر يعد أخرق أحمق لا بطلاً . ومتى كان شاعر بطلاً ؟ نعم قد يكون جريئاً والجراءة في غير محلها خبل .

٤ — وجاء في الصفحة ١٠٣ في ترجمة ابن سارة الشاعر الأندلسي هذا البيت من بحر الرجز :

جاءتك في تنورها المسجور ... في حلل من الديجور

وعلق عليه الأستاذ العلامة في ذيل الصفحة : (بياض في الأصل) . والذي أراه أن البياض يقع بعد قوله في حلل من ، ويكون البيت هكذا :

جاءتك في تنورها المسجور في حلل من ... الديجور ،

ولعل كلمة (ظُلَم)ضاعت بعد (من) فجاء البياض بهذا الوجه ، ولعل البيت كان هكذا :

جاءتك في تنورها المسجور في حلل من ظُلَم الديجور

يؤيد ما قلته الوزن ومعنى الأبيات التي جاءت بعده .

وحسب تعليق الأستاذ يجوز أن يكون الساقط كلة (تختال) فيكون هكذا :

جاءتك في تنورها المسجور تختال في حلل من الديجور

ويكون البيت من البحر الكامل دخل زحاف في أكثر تفاعيله .

٥ — في الصفحة ١٢١ توجه الأستاذ العلامة إلى ترجمة الفقيه هشام بن عبد الوفشي

ولكنه لم يترجم له بشيء بل ذكر ما أورده العماد في الخريدة على سبيل الاستطراد قول محمد بن مالك .

أما الغرام فقد ألحّ وزادا　　باغرّ لا يعطي المحب قيادا
حلفت صحيفة خده ألا ترى　　في صحنها أبد الزمان سوادا

ثم أشبع البحث في عادة أهل الأندلس في لبس البياض . وما أدري ما علاقة هذا البحث المشبع بالفقيه هشام بن محمد الوقشي ، ولعل ما جاء في بيتي ابن مالك فتح هذا البحث بدلالة الشطر الأخير : (في صحنها أبد الزمان سوادا) .

ولكني لا أرى علاقة بين سواد صحن الخد ولبس أهل الأندلس البياض ، فان المراد من قوله في البيت الثاني (سوادا) الكناية عن القبلة . فكأنه يقول حلفت صحيفة خده ألا ترى كتابة عليها والكتابة على الخد كناية عن القبلة . فهي لا تعطي الحب قبلة ، يؤيد هذا المعنى قوله في البيت الأول لا يعطي المحب قيادا .

٦ — وجاء في الصفحة ١٢٦ في السطر (٢) تعبير (أخبار وماجريات) .

إن تعبير (وماجريات) استعمله بعض المتأخرين من المؤلفين وهو تعبير غريب عجيب ، إذ كيف يصح جمع الفعل الماضي جمع مؤنث سالم ؟

وتعابير المتقدمين ليست بحجة فما قولك بتعابير المتأخرين . إن قواعد العربية التي استقرت لا يجوز خرقها برأي فردي وحجة ضعيفة ، بل قد يجوز ذلك إذا جاءت به مؤتمرات أدبية عامة معترف بها .

وبعد فهذه المحاضرات المجموعة أدت حق موضوعها أداءاً حسناً ، وأهدت إلى المكتاب العربي هدية ثمينة ، يشكر عليها العلامة الشـــنبي .

منير القاضي